

# الطوبونوميا الأمازيغية في المخطوطات الإيباضية

موحمد و مادي

## مقدمة

"الطوبونوميا" (1) هذا المفهوم هو ترجمة للكلمة اليونانية التي تدل على هذا العلم Toponumyme وهي مركبة من كلمتين Topo بمعنى المكان و Anoma التي تعني الاسم. يعرفها روبرت دولر بقوله: "علم يدرس أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية باعتبارها مجالات ترتبط بها الإنسان وجدانيا أو فكريا أو خياليا بغية الوصول إلى نوع العلاقة الرابطة بينها" (2). في الحقيقة الطوبونوميا كعلم قائم بذاته لم يخرج للوجود حتى مؤتمر باريس 1938 فكان من نتائجه الاهتمام أكثر بدراسة أسماء الأماكن والمواقع باعتبارها جزء لا يتجزأ من تاريخ الإنسان وبيئته (3).

لا ادعي أن أكون أول من يفرد هذا الموضوع ببحث، وحديثي في هذا الشأن ليس إلا مغامرة، ففي الحقيقة لم أضطلع حتى تاريخ صياغة هذه الورقة على أي بحث خاص

---

(1) \_ ربما يحلو للبعض الناس تسمية هذا العلم بالأماكنية، راجع رشيد الحسين / وشم الذكرة.

(2) \_ روبرت دولر، الطوبونوميا.

(3) \_ أصول اقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر.

في موضوع الطوبونوميا الليبية (1) ، فهناك إشارات مقتضبة هنا وهناك، من أمثال ما ذكره الشيخ المرحوم طاهر الزاوي في معرض حديثه عن اسم تاجورا فقال "عليها مسحة من اللغة البربرية، لأن لفظ (السابقة) (تا) في اللغة البربرية تدخل على المؤنث: مثل تاورغا، تاردية، تاغرمين، تاقریصت و هذه الأسماء كثيرة في اللغة البربرية". (2) فمثل هذه الملاحظات نجد لها متناثرة هنا وهناك في كتب التاريخ خاصة، ولعله يكون من المفيد أن تُجمع بين دفتي كتاب واحد.

وهناك بحث غير مكتمل للمستشرق الإيطالي (3) Beguinot, Francesco المعروف بدراساتها الأمازيغية في ليبيا، ومؤخرا نشرت مؤسسة تاوالت الثقافية بحث متخصص في موضوع الطوبونوميا والانوميا الأمازيغية، إلا أنه يختص بمنطقة جبل نفوسة وحدها. (4) ولن أدعي أنني سوف أُلِمُّ بالموضوع من جميع جوانبه، ولكن سوف اعتبر هذه المقالة مجرد لفته نظر لموضوع يحتاج لعناية ودراسة دقيقة من قبل المختصين.

## الجدوى من هذا العلم

الجدوى من دراسة علم الطوبونوميا تكمن في الفائدة التي يمكن تلمسها في العلوم والفنون التي تستعين به في مناهجها للدلالة على مختلف الفرضيات التي تطرحها " ... فتسمية الأشياء والناس، ليس فقط مجرد عملية اصطلاحية تفرضها الضرورة العلمية للسير العادي لنظام الحياة، في علاقته مع الإنسان، بل توظيف إرادي أو لا شعوري لنوع هذه العلاقات المرغوب فيها أو المفروضة، في إطار التعامل الضروري بين الإنسان

(1) - إلا في المغرب والجزائر ووجدت بحوث كثيرة متخصصة في الموضوع.

(2) - الطاهر الزاوي في معجم البلدان صفحة 76.

(3) - كتب Beguinot, Francesco المعروف بدراساتها الأمازيغية في ليبيا كتابا بعنوان: Per gli studi di toponomastica libico berbera. وسوف تقوم مؤسسة تاوالت بترجمة هذا الكتاب ليتيح للباحثين الاستفادة من مجهودات هذا العالم الفذ.

(4) - حرر الكتاب في الأصل بالفرنسية وقام بترجمته الأستاذ عبدالله زاروا تحت عنوان تسمية شيوخ نفوسة وقراهم.

## الطوبونوميا الأمازيغية

ومحيطه الطبيعي والبشري. فإطلاق الاسم تعبير عن علاقة ما، عن موقف ما من وبين المسمّي والمسمّى. ومعلوم أن العلاقة والموقف في هذه الحالة يتغيران بتغير الأحوال، وتغيرها هذا يؤدي حتما إلى تعديل ما في شكل ومضمون الأسماء... ومن هذا تستمد الأسماء قيمتها الوثائقية بالنسبة إلى المؤرخ." (1)

ووجد أيضا من بين العلوم والمعارف التي تستفيد من الطوبونوميا على سبيل التمثيل لا الحصر: علم الجغرافيا، علم التاريخ، اللسانيات وعلم الاجتماع بمختلف تخصصاته، لاسيما علم الاجتماع الانتربولوجي، وعلم الآثار، وعلم الهندسة المائية، وعلم النبات، علم المعادن، علم السكان، علم الهندسة المعمارية، وأحيانا تجمع الكلمة الواحدة بين أكثر من علم من هذه العلوم.

عودة إلى الإباضية واهتمامهم بالطوبونوميا، لم تكن عنايتهم في تحديد معاني أسماء الأماكن غاية في حد ذاتها، ولكن لأغراض تخدم النصوص التي ألفوا فيها، وأكثرها دينية، أما في ما يخص جبل نفوسة فلقد درجت العادة عندهم على تسمية كل مكان، فأنت تنتقل بين مكانين لا يفصلهما إلا عدة أمتار ولكل منهما اسمه الخاص.

ما تجدر الإشارة إليه هو ووجود مقطوعات مشتركة بين هذه التسميات، أي وجود ما يسمى بالسوابق واللواحق لهذه الكلمات - أو التسميات - ذلك لأن اللغة الأمازيغية تستخدم قانون النحت اللغوي لتخلق كلمات جديدة، يسميها اللغويين العرب الصوادر والكواسع - وبالإنجليزية هي suffix و prefix. - ولكن هذه الظاهرة ليست فقط في المناطق المتحدثة بالأمازيغية فحسب، بل أثارها موجودة في كل ركن من أركان ليبيا كما سترا لاحقا. لما لا وقد نقل لنا ابن خلدون قائلاً إن "هذا الجيل من الأدميين - عانيا ئمازيغن - هم سكان المغرب القديم ملاءو البسائط والجبال من تلولة وأريافه وضواحيه وأمصاره..." (2) وبما انهم ملاءو كل هذه الأركان إذا كان لزاما أن يتركوا لنا آثارا في هذه الأماكن.

(1) \_ علي صدقي أزايكو - تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة ص 11

(2) \_ المجلد السادس ص 175

## تحليل بعض النصوص

حاولت أن أجمع ملاحظاتي التي وجدتتها عند كُتّاب التاريخ والسير الإباضية، فتبين لي مما جمعته أنها لا تخرج عن نوعين الأول: ذكر عارض لاسم المكان من غير محاولة تفسير معناه، أو ضبط طريقة كتابتها.

الثاني ذكر اسم المكان وتفسير معناه وهو بدوره ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما هو منسوب للقبيلة التي كانت أو لتزال ساكنة بتلك المنطقة فنسب المكان إليها وهو كثير، وسيأتي ذكره.

ثانيا: منها الوصف الجغرافي، أي ما ينسب إلى تشكيلة المنطقة الجغرافية.

لن أعرج على النوع الأول في هذه المقالة لعدم ارتباطه المباشر ببحثي هذا لكنني سوف أعرج عليه لاحقا إن أمكنني الأمر.

**النوع الثاني الجزء الأول:** توجد أماكن كثيرة في ليبيا تحمل اسم القبائل الأمازيغية

التي قطنت بها فعلى سبيل التمثيل لا الحصر نجد: نفوسا (نفوسة)، ورفلة (ورفلة)، مسراتا (مصراتة)، وُرشفانن (وُرشفانة) ئزنانن (الزنتان)، غريان، أيت عديمس (غدامس) وُدّان (وُدّان) ترهونا (ترهونة) وغيرها كثير... وللأسف يعتري بعض هذه التسميات شيء من لوي أعناق النصوص لتتلاءم مع التوجهات الإيديولوجية للمفسرين لهذه الأسماء، مثل ما حصل مع غدامس حيث أصبحت "غدي أمس" ونفوسة التي أصبحت تفسرها أنهم "أسلموا بأنفسهم"، حيث يكتب اسم هذه الأخيرة نفوسة وكذلك نفوسا، ويبدو أن الشيخ طفيش هو من أعطى هذا التفسير لاسم نفوسة حين قال "أن نفوسة سميت بهذا الاسم لأن أفرادها أسلموا بنفوسهم، وأذعنوا للإسلام من تلقاء أنفسهم دون داعي قاهر" (1)، وهذا النوع من التحليلات كثير جدا في الكتب التاريخية التي لا تعتمد التحليل

(1) - محمد بن يوسف أطفيش: رسالة شافية في تاريخ وادي ميزاب، مخطوط بمكتبة القطب، غرداية (الجزائر)، ص 11.

المنطقي وترد الاعتبارات للتسلسل التاريخي للأحداث، فاسم نفوسة من أسماء القبائل القديمة جداً، حيث جُده عن المؤرخ [كوريبوس Corippus] ، بلفظ [نابوسي Navusi] وحسب المؤرخ يتعلق الأمر بقبيلة أمازيغية، كانت تقطن حوالي 546م (1) ويذكر المؤرخون المسلمون الأوائل أن نفوسة كانت تقطن في صبرة (صبراتة) (2) وكانت سوقاً لهم إذا يتبين من النصوص السابقة لم تبدأ تسمية نفوسة القبيلة ولا المكان بمجيء الإسلام بل إنه قديم قدم الحضارة نفسها، وبذلك التفسير باللغة العربية ليس له أي اعتبار هنا.

وعن آيت عديمس (غدامس) فقد وردت في مخطوطة بدون عنوان تفسيراً للفظه غدامس "... وجازت قافلة على الوادي وقيلوا في الوادي وتغدوا هنالك ثم رحلوا وساروا الى أن باتوا فلما أصبحوا أرادوا الرحيل ففقدوا آلة من الأكل وقال أحدهم نسيناها في غدانا أمس ثم رجع فارسا..." (3) الشاهد هو التفسير الشعبي في ذلك، ويبدو أن بن خلدون يؤيد الرأي القائل أن غدامس بنيت في عصر الإسلام وهذا ما يعطي مبرراً لمثل هذه التعليل باللغة العربية حيث يقول " " قصور غدامس على عشرة مراحل قبل سرت وكانت مختطة منذ عهد الإسلام وهي خطة تلمة على قصور وأطام عديدة" (4) ، الذي يبدو لي أنه كان حرياً بـابن خلدون أن يتحدث عن إعادة بناء وليس بناء للأسباب التالية : أولها أن غدامس حاضرة المنطقة من عصور موغلة في القدم بما تدل عليه الآثار التي ووجدت في المنطقة - وهذا ليس محل بحثنا - غير أنني سوف أعود للتسمية فقد تم ذكر غدامس لأول مرة في Plain تحت إسم Cydamus باعتبارها من جملة المدن التي أخضعها Cornelius Balbus للجيوس الرومانية حوالي العام 19 ميلادي (5) أي أكثر من ستمائة سنة من مجي العرب والمسلمين.

(1) - Corippus, Johannis, T. II, p. 146

(2) - المجلد السادس ص 175

(3) - مخطوط بدون عنوان من تأليف مصطفى خوجة بناء على رغبة المستشرق الفرنسي روني باسي ورقة 2

(4) - تاريخ ابن خلدون ص 518 / 1

(5) - نصوص ليبية / ترجمة الدكتور علي فهمي خشيم ص 122 - 124.

**النوع الثاني:** ما له علاقة بالوصف الجغرافي للمنطقة، والتشكيلات التضاريسية من جبال وسهول وأفجاج وغيرها من أمثال أسماء الأماكن التالية: تامسنا، برغن (برقن)، زليطن (زليطن)، تاسيلي، جنزور، تاجورا، تاورغا، يدّر، سرت (صرت) وغيرها كثير، فهذه الأخيرة تكتب صرت بالصاد كما وردت عند الحميري (1) ولكن مع مرور الزمن صارت تكتب بالسسين كما هو الحال مع مسراتنا التي أصبحت مصراتة وغيرها كثير... الشاهد أنه ليس المتعربين فقط من يلوي أعناق النصوص بل حتى الرومان في ذلك العصر فعلوا نفس الشيء مع الألفاظ الوطنية من أمثال لواتة أصبحت لبتييس، وتغرم صارت جرما (جرمة) والتي سوف نعرض عليها لاحقا. حيث نرى في هذا الصدد Procopius يقول أن كلمة سرت جاءت من الكلمة اليونانية Suresthai والتي تعني "التي تجلب الامواج" وزاد سالوست بقوله أن سرت جاءت من فعل جرف (2) Suren السؤال الذي يطرح نفسه هنا إذا كانت كلمة يونانية لماذا يحتاج Procopius إلى تفسيرها إن لم تكن مستعصية عليهم فهمها، وزد على ذلك كلام سالوست الروماني والذي يظهر أن الرومان كانوا يسمونها Euphranta ولم يلتفت أحد منهم، ولا من المؤرخين المعاصرين للغة الأمازيغية ليجدوا تفسيراً لمثل هذا اللفظ ويكفوا أنفسهم عناء لف أعناق النصوص حيث أن كلمة سرت (صرت) باللغة الأمازيغية تعني الخليج فنجد مثلاً عند أهل نفوسة مناطق صرت كصفة مضافاً إليها الاسم فمثلاً: عندنا صرت و منيش في يفرن. فكلمة سرت إذا هي مصطلح جغرافي يعني الخليج، أما دعوى أصلها اليوناني فلقد حاولت أن أتبع الكتب القديمة والخرائط لعلي أجد ما يدل على وجود كلمة سرت في اليونان القديمة فلم أجد لها على اثر بالرغم من وجود ثلاث خلجان عندهم.

وأحيانا يكون تفسير أسماء بعض الأماكن بحوادث طرأت على المنطقة بدون مراعاة للجذرها أو الاشتقاق اللغوي مثل ما حصل مع اسم تاورغا (تاورغة) حيث يذكر المؤرخون

(1) \_ الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 132

(2) \_ حرب يوغرطا ص 161 في ذلك يقول الدكتور محمد التازي سعود الصواب أنها - أي سرت - لفظ محلي لا غير.

القصة التالية "وبلغنا أن رجلاً من الحضرة لقي رجلاً من أهل الدعوة، فقال له المخالف ما تفسر تاورغا؟ (يقرعه بمقتل أبي الخطاب) وكان صاحبنا فطيناً فأجابه، بان قال تفسرها: مغمداس فيه أربعة أكداس في كل كدس أربعة..." (1) الشاهد هنا أن تاورغا لفظة وصفية بالأمازيغية يقول الحموي "بمدينة نفاوة عين تسمى تاورغا بالبربرية" (2) فكلمة تاورغا بالأمازيغية تعني السبخة ونرى في ليبيا يسمى عين المكان بسبخة تاورغا أي تفسر اللفظة الأمازيغية بأخرى عربية. وهذا كثير الحدوث مثل ما حصل مع اسم (وادي سوف الجين) حيث أن كلمة سوف تعني الوادي بالأمازيغية، وكذلك ما هو حاصل مع ألفاظ عديدة من هضبة تاسيلي حيث أن تاسيلي تعني المرتفع إلى منخفض أسيرير فكلمة أسيرير بالأمازيغية تعني الأرض القاحلة وأمثالها كثير.

وهذا بالتالي يأخذني إلى نوع آخر من الألتباس اللفظي فمثلاً خذ كلمة نعرفها جميعاً هو اسم الحضارة الليبية القديمة في الجنوب وهي حضارة جرمة، في اللغة اليونانية وهي اللغة التي أخذت منها كلمة جرمة نجد الكلمة Garamantes ويجب الانتباه على أن tes في آخر هذه الكلمة زائدة إذا الكلمة (3) هي garaman والتي ترجمة لاحقاً على جرمة لأن العربية لا يوجد فيها الحرف G فإبدلت إلى جيم ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو ماذا كان إسمها قبل الترجمة إلى اليونانية. في الطوبونوميا الأمازيغية إلى الآن توجد أماكن كثيرة وخاصة في أدرار نفوسة تحمل أسماء مشابهة مثلاً في الزنتان توجد منطقة يسميها الأمازيغيون إلى اليوم تيغرمين مفردها تُغرم وتوجد منطقة في القلعة الشرقية من يفرن تسمى تُغرم وهناك حصن من أيام النصرانية وبه كنيسة يسمى تُغرم وبنان، وكلمة تُغرم بالأمازيغية تعني الحصن أو القلعة، أما المنطقة الغربية لنفوسة فيوجد فيها أكثر من 5 مناطق تحمل نفس الاسم، جرمة / غرمة / غرمة، أخي لاحظ التشابه بين هذه الكلمات والتشابه في العمران بينها وبين ما نسميه اليوم جرمة. ولاحظ أنه لا يوجد في

(1) \_ الدرجيني الطبقات ص 38/1-39 الشماخي: السير ص 142-203.

(2) - معجم البلدان ج 5 ص 296

(3) \_ راجع في ذلك محمد شفيق حفريات في اللغة قد تفيد المرخ ص 20

## دراسات نفوسية

اليونانية حرف الغين فإستبدلوها بالحاء المعقوفة (گ) G ومن ثم تم توريدها إلينا بالميم لأنه في العربية أقرب لفظ لها هو الميم كما هو الحال مع جمال (التي تنطق عند المصريين جمال) وغيرها كثير.

هذا فيض من غيض، وإنما أردت من هذا البحث القصير أن أنبه لعلم مهم ومبحث لطيف قل به الإعتناء، ولعل أحد أبناء ليبيا الأبرار يتصدى لهذا الموضوع المهم يوما ما بكتاب شافي كافي يزيح من خلاله اللثام عن الكثير من الألفاظ المبهمة ويوضح ما علق ببعض الأسماء من خرافات.

موحمد ومادي